

البدايات المبكرة لحضارتي السودان ومصر قبل الألف 3 ق.م

د. أحمد الياس حسين

مستخلص:

تدور هذه الأيام بين دارسي تاريخ السودان القديم بعض الأسئلة حول البدايات المبكرة لثقافات وحضارة السودان القديم وعلاقتها بثقافات وحضارة مصر القديمة. ولأهمية هذا الموضوع في تأسيس وفهم تاريخ السودان القديم أطرح هذا الموضوع للمزيد من التفكير والنقاش. يبدأ الموضوع بتمهيد عن المكان الذي نشأت عليه كلا الحضارتين للمساعدة لفهم تلك المراحل المبكرة من تاريخ وادي النيل. ثم يتناول الموضوع نشأة الثقافات المبكرة في وادي النيل والعلاقات بينها، وأثر الثقافات السودانية المبكرة على المصرية وأخيرا انفصال الثقافتين قبل بداية عصر الأسر.

Abstract:

The early beginnings of the Sudanese and Egyptian civilizations. These days, some questions are being asked among the younger generations about the rise of the early Sudanese and Egyptian civilizations and their relationships. Because of the importance of this issue on the rise and understanding the history of ancient Sudan, I present this topic for further investigations and discussions. The topic begins with an introduction to the place where both civilizations arose to help understanding the early stages of the ancient history of the Nile Valley. Then the topic deals with the emergence of the early cultures of the Nile Valley, the relationships among them, the Interaction between the early Sudanese cultures on the Egyptian, and finally the separation of the two cultures before the beginning of the dynastic era.

أولاً: تمهيد:

تقول لاري روس في مقدمة كتابها النوبة ومصر 10000 ق م - 400 م «بالرغم من ان عدداً كبيراً من المؤلفات القيمة قد كتبت عن مصر والنوبة إلا أن العلاقة بينهما تبدو غير واضحة أو تبدو كتفسير خاطيء لهذه المنطقة الثقافية» (Ross, p1) أرى انه من المفيد التوقف قليلاً مع الفترة المبكرة لبداية حضارتي السودان ومصر ومراجعة تلك البدايات المبكرة لمحاولة التعرف عليها من خلال الأوضاع المحلية والاقليمية التي ساعدت على التطور الحضاري للمنطقتين والعلاقات بينهما. وأرى أن مثل هذه المراجعات مهمة لفهمنا وتقييمنا للحضارة السودانية في مرحلة ما قبل مملكة تاستي وما هي علاقتها بالحضارة المصرية في مرحلة ما قبل الأسر. كما هي مهمة أيضاً لفهمنا وتقييمنا لمملكة تاستي والأطوار اللاحقة حتى قيام وتوسع مملكة كوش الأولى.

رغم ان الكثير من الأبحاث القيمة تناولت المراحل المبكرة للحضارتين السودانية والمصرية - كما وردت الإشارة أعلاه - إلا أن صورة تكوين البدايات المبكرة لتاريخ السودان تبدو باهتة ومفككة الحلقات. ففيما يتعلق بالحضارة المصرية تأتي البدايات المبكرة متسقة ومتراصة في مراحل ثقافات ما قبل الأسر ثم عصر الأسر. فالتسلسل واضح والروابط متصلة حتى بداية الأسرة الأولى. أما فيما يتعلق بتاريخ السودان فدراسة الثقافات المبكرة تبدو متناثرة تفتقد الرابط والعلاقة بينها، وتتم دراستها وربطها في الغالب بمراحل التاريخ المصري. ولا يشعر الدارس الربط بين تلك الثقافات المبكرة وبداية تاريخ السودان القديم. فتاريخ المجموعة أ (ما قبل قسطل) ينطلق ويرتبط بفترة ما قبل الأسر في مصر، ثم تأتي مملكة تاستي في محور بداية الأسر دون التعرض للثقافات السودانية المبكرة المعاصر لها، ثم اختفائها المفاجئ. ويتم تناول الوحدات

السياسية السودانية مثل واوات وستجو وإرثت ويام ومدجو من خلال تاريخ الأسرة المصرية السادسة ثم الانتقال إلى ثقافة المجموعة ج دون ربطها بالوحدات السياسية سالفة الذكر والتي تأسست المجموعة ج في نفس مناطقها. ولا يتم الربط بين تلك الوحدات السياسية أو أصحاب الثقافة ج بمملكة كوش الأولى في كرمة ولا بالثقافات المبكرة شرق وغرب النيل. وهكذا تبدو ما يتم تناوله من تاريخ السودان قبل قيام مملكة كوش الأولى في منتصف الألف الثالث قبل الميلاد وكأنه تاريخ وحدات منفصلة لا يتضح الرابط بينها وبين ظهور مملكتي تا ستي وكوش الأولى. وأغلب ما يرد عن تلك الثقافات المبكرة على النيل يرتبط بصورة مباشرة بأحداث التاريخ المصري، وتكاد أحداث التاريخ المصري تأتي مساوية لما يرد عن أحداث تاريخ السودان. فدراسة هذه الثقافات بهذه الصورة يضعف من إبراز هويتها السودانية، كما يضعف أيضاً الرابط والتسلسل بين المراحل المبكرة لتاريخ السودان القديم. أما الثقافات المبكرة البعيدة من النيل شرقاً وغرباً مثل ثقافات نبتا بلابا ووادي هور ووادي العلاقي ونهر عطبرة والقاش والبطانة رغم أن تناولها غير مرتبط بالتاريخ المصري إلا أن حضورها وفعاليتها في تأسيس تاريخ السودان القديم لا تزال غائبة في إذهان دارسي تاريخ السودان من غير الاختصاصيين. فالدارس لتاريخ السودان القديم وآثاره والقراء العام يحتاج إلى التعرف على الثقافات المبكرة في كل أنحاء السودان وعلاقتها بتأسيس تاريخ السودان القديم حتى تتكون الصورة الشاملة - بنيله وشرقه وغربه - في الأذهان.

النيل والمناطق المجاورة له غرباً وشرقاً في السودان ومصر

سنتعرف فيما يلي - بإيجاز - على المناطق التي نشأت عليها ثقافات وادي النيل المبكرة على النيل في السودان ومصر وعلى المناطق الواقعة غرب وشرق النيل.

1. منطقة النيل بين النيل الأبيض وشمال مصر:

منطقة النيل شمال مصر:

مر النيل بين منطقتي الخرطوم ومصر الوسطى باستقرار نسبي بالمقارنة إلى امتداده في شمال مصر حتى البحر المتوسط. فقد شهد مجرى النيل في شمال مصر تغيرات كبيرة عبر العصور. ولم تساعد تلك التغيرات البيئية على قيام وتطور الثقافات المبكرة. فعلى سبيل المثال كما يقول محمد عوض محمد (ص 155 - 156) كان مستوى النيل في العصر الحجري القديم أعلى بكثير من مستواه الحالي. وبدأ في الانخفاض التدريجي حتى بلغ في نهاية العصر الحجري القديم نحو 43 متر، وهبط مستوى النهر في القاهرة بنحو 33 متر عما هو عليه اليوم وتقدم الساحل الشمالي للقطر المصري بنحو 11 كيلو متر. وأوضح (ص 159) أن النيل في شكله الحالي في مصر يبدأ نحو 12 ألف سنة مضت. وقد أدى هذا الوضع إلى تركيز قيام وتطور الثقافات المبكرة في المناطق الوسطى والجنوبية للنيل في مصر.

منطقة النيل جنوب الخرطوم:

كانت منطقة السدود - التي تقع الآن جنوب النيل الأبيض - فيما مضى بحيرة داخلية مثل بحيرة تشاد امتدت شمالاً حتى منطقة السبلوقة شمال الخرطوم. وقد أدت طبيعة المنطقة

المسطحة إلى انسياب فيضان المياه على مساحات واسعة بلغت غرباً حتى منطقة أم روابه الحالية. ولذلك غطت البحيرة مساحات واسعة بلغت نحو 230 ألف كيلو متر مربع في مناطق وسط وجنوب السودان. وكان فيضان النيل الأبيض في عصر الهولوسين المبكر ثلاثة مرات أعلى من مستواه الحالي، وبلغ أعلى مستوى للنيل الأبيض في الألف السابع قبل الميلاد. (Nicoll, p 568; (William, et al; El Sharifie

مجرى النيل بين الخرطوم والقاهرة:

يلاحظ على مجرى النيل بين الخرطوم وأسوان وجود ستة شلالات إلى جنب بعض المناطق الصخرية الصغيرة. أدى هذا الوضع إلى إعاقه حركة الملاحة المتواصلة بين أسوان والخرطوم بعكس مجرى النيل بين أسوان والبحر الأبيض حيث لا توجد شلالات أو عوائق ملاحية على طول المجرى. وقد أدى ذلك إلى سهولة الحركة على طول المنطقة النيلية بين أسوان والبحر المتوسط مما ساعد على سهولة الحركة التواصل وأدى فيما بعد إلى تطور الحكم المركزي في الوقت الذي أعاق فيه الشلالات حركة التواصل عبر النيل بين الخرطوم وأسوان، مما أعاق تطور السلطة المركزية على الأقل في البدايات المبكرة للحضارة السودانية القديمة.

يلاحظ تتوفر وسائل الحياة في المناطق المجاورة للنيل شرقاً وغرباً بين منطقة الأقصر في جنوب مصر والخرطوم أكثر من تلك التي تجاور النيل شمالاً بين جنوب مصر والدلتا شرقاً وغرباً. فمصادر المياه في هذه المناطق تتمثل في واحة سيوة التي تقع بالقرب من الحدود الليبية المصرية، كما توجد واحتان بعيدتان من النيل هما الواحة البحرية وتقع غرب مدينة المنيا في صعيد مصر على بعد نحو 200 كيلومتر، والثانية واحة الفرافرة التي يقع جنوب غرب الواحة البحرية على بعد نحو 300 كيلو متر من النيل. لا توجد أودية كبيرة في هذه المنطقة تساعد على ربط النيل بالداخل غرباً. فسبل كسب العيش في هذه المناطق ضيقة إذا ما قورنت بالمناطق الواقعة جنوباً. والمنطقة الواقعة شرق النيل الأوسط في مصر تبدو أكثر فقراً في موارد الحياة إذ لا توجد بها واحات كما لا توجد أودية كبرى باستثناء وادي أسيوط. فأصبحت المنطقة الوسطى من النيل المصري وامتدادها شمالاً شبه منعزلة عن جوارها شرقاً وغرباً مما أدى إلى ضعف التواصل بين سكان النيل وسكان المناطق المجاورة له.

2. المناطق الواقعة غرب وشرق النيل في جنوب مصر والسودان:

المناطق الواقعة غرب النيل:

ارتبطت الثقافات المبكرة التي أدت إلى بداية عصر الأسر على النيل في مصر بمناطق مصر العليا. فالمناطق الممتدة غرب النيل من الأقصر شمالاً حتى الخرطوم تمتعت بقدر وافر من مصادر الحياة من واحات وبحيرات وأنهار وأودية. فإذا نظرنا إلى منطقة غرب النيل من الأقصر متجهين جنوباً نجد عدداً كبيراً من الواحات والآبار القريبة من النيل. فإذا استثنينا الواحة الداخلة على بعد نحو 400 كيلو متر من النيل والواحة الخارجة على بعد نحو 200 كيلومتر من النيل نجد أن باقي مصادر المياه تقع على أقل من 200 كيلو متر من النيل وتمتد غرباً موفرة مساحات واسعة للحياة النباتية والحيوانية والبشرية.

هذه المصادر من الشمال إلى الجنوب كالآتي: الواحة الداخلة والواحة الخارجة مقابل منطقة الأقصر وواحة كركور جنوب أسوان وجنوبها واحة دنقل وإلى الغرب أبار كسيبا وطرفاوي وصحابة ثم نيتا بلايا شمال غرب وادي حلفا ثم واحة سليمة جنوب غرب وادي حلفا ثم واحة لقية غرب منطقة دنقلة ثم واحة النخيلة إلى الغرب من لقية ثم بحيرة دارفور القديمة الكبرى جنوب غرب واحة النخيلة. وإلى جانب هذه الواحات يوجد عدد من الأودية التي كان بعضها أنهاراً دائمة الجريان وبعضها الآخر أودية موسمية مثل وادي هور الذي يصب في منطقة دنقلة ووادي الملك الذي يصب بالقرب من دنقلة جنوباً وادي القعب الذي يجري محاذياً للنيل في منطقة دنقلة وإلى الغرب منه وادي شاو وسهل في منطقة لقية وإلى الجنوب منهما وادي حريق. ويلاحظ أن أودية سهل وشاو وحريق وبحيرة دارفور الكبرى تقع بعيداً من النيل لكنها كلها متصلة ومرتبطة بالنيل، فمن منطقة دنقلة غرباً يقع وادي القعب القرب من النيل ومنه إلى لقية ومنها إلى وادي سهل وشاو وبحيرة دارفور، وإلى الجنوب من ذلك وادي هور الذي أطلق عليه الباحثون النيل الأصفر. وإلى الشرق من منطقة دنقلة انحناء النيل الكبرى التي توجد جنوبها صحراء بيوضة الحالية والتي كانت أيضاً غنية بمصادر المياه والحياة النباتية والحيوانية والبشرية حيث يقع في غربها وادي الملك ثم إلى الشرق منه وادي المقدم الذي كان خليجاً ربط النيل الأبيض شمالاً عبر صحراء بيوضة بالنيل (Mallinson, Michael, et al, p309) ثم شرقيه وادي أبدوم فالنيل. وقد تناولت كل مصادر المياه هذه في موضوعات عن الثقافات السودانية المبكر في الصحف الإلكترونية (أنظر أحمد الياس حسين، فترة الثقافات المبكرة)

المناطق الواقعة شرق النيل:

رغم أن المنطقة الشرقية للنيل بين الأقصر شمالاً والخرطوم جنوباً لا توجد فيها واحات كما هي الحال في المنطقة الغربية للنيل إلا أنها تمتعت أيضاً بمصادر مياه تمثلت في الأنهار والأودية الكبرى التي كان بعضها دائم الجريان مثل وادي الحمامات إلى يصب في منطقة الأقصر ووادي شعيت جنوب أسوان ووادي العلاقي الذي تنتشر فروعه في السودان، وتبدأ مجاريه في الشرق من جبال البحر الأحمر مثل وادي كو ووادي إيلي Elie. (محمد عوض محمد ص 133) وتبدأ مجاري وادي العلاقي في الجنوب بالقرب من النيل في منطقة أبو حمد مثل وادي قباقبة. وإلى الجنوب من وادي العلاقي بقع وادي السبوع وجنوبه وادي كورسكو وجنوبه وادي مور، ثم نهر عطبر وسهل البطانة بينه وبين النيل الأزرق، وهي المنطقة التي أطلقت عليها المصادر اليونانية والرومانية جزيرة مروي.

ثانياً: نشأة الثقافات المبكرة في السودان ومصر :

كانت النشأة المبكرة لثقافات وادي النيل نشأة مشتركة ارتبطت ببعضها البعض وأثرت وتأثرت بالمناطق الواقعة إلى الغرب والشرق من النيل وامتدادات تلك المناطق شرقاً وغرباً ومتواصلة مع ثقافات شمال شرق إفريقيا. ويرى الباحثون أن تطور المجتمعات المبكر في إفريقيا يختلف عنه في منطقة الشرق

الأوسط. فمسار انتاج الطعام في افريقيا يختلف عنه في آسيا التي يتركز انتاج الطعام فيها في المقام الأول على تدجين النبات، أما في افريقيا فظهور العصر الحجري الحديث وانتاج الطعام اعتمد على تدجين الحيوان. فالعصر الحجري الحديث في افريقيا اعتمد على تدجين الحيوان في مجتمعات افريقية غير مستقرة. (Gatto, 2009, p 22) ونقلت الباحثة جتو تفسير البعثة المشتركة لما قبل التاريخ Combined Prehistoric Expedition لظهور استئناس الحيوان في البيئات ذات المناخ غير المستقر في افريقيا والذي يفترض أن التدجين يحدث دون تدخل الانسان. وقد أوضحت أبحاث علم اللغة أن الكلمات المرتبطة بتدجين الحيوان أقدم من تلك المرتبطة بتدجين الحبوب. وخلافاً لما كان مفهوماً فإن المجتمعات الرعوية يمكن أن ترتقي بنظمها إلى مستوى الدولة. (Gatto, 2009, p 22) كما أن استخدام الفخار - كما ترى روس - دلالة قاطعة على انتاج الطعام والحياة المستقلة والمجتمع الهرمي. (Ross, p 45)

وفيما يلي إلقاء نظرة موجزة وسريعة على نشأة الثقافات المبكرة في السودان ومصر وارتباطها بالمناطق المجاورة لوادي النيل.

ثقافات مناطق غرب وشرق النيل :

تمتعت المناطق الصحراوية الحالية شرق وغرب النيل بمناخ رطب وتوفرت فيها موارد الحياة النباتية والحيوانية وتطورت سبل كسب العيش والنظم الاجتماعية فعلى سبيل المثال كانت أرض الصحراء في العصر الحجري الحديث خضراء ذات بحيرات موسمية وأحياناً دائمة، وقد تخللت فترة الرطوبة هذه بعض الفترات الجاف التي كانت تؤدي إلى تحرك السكان نحو النيل. وقد أطلق الباحثون على هذه الفترة «الفترة الافريقية الرطبة» (Manning African Humid Period. (and Timpson, p 29

يرى بروس وليامز أن الكشوفات في العقود الأخيرة أوضحت أن ثقافة العصر الحجري الحديث تطورت في شمال شرق افريقيا بالتواصل والتأثير والمشاركة من مناطق الصحارى الحالية، فقد كانت تلك المناطق معابراً لما وراءها. وبعد حدوث الجفاف ظلت الوحدات السياسية مناطق نفوذ واسعة للتواصل والتعدد الثقافي والاقتصادي. (Williams 2006, P 189)

ويتفق سمث مع ما ذهب إليه بعض الباحثين من أن مجتمعات رعاة الماشية الذين يعتمدون على الحشائش ومناطق تجمع المياه في فترة المناخ الرطب في المناطق الصحراوية الحالية تبدو مجتمعاتهم أكثر تعقداً more complex من المجتمعات المعاصرة لهم على النيل. (Smith, p 330) وبدأ تغير المناخ نحو الجفاف تدريجياً من الشمال للجنوب منذ نهاية الألف السادس قبل الميلاد صاحبه التحرك التدريجي شرقاً نحو النيل وجنوباً نحو مصادر المياه. فعلى سبيل المثال كان رعاة البقر في ل يزلون في منطقة نبتا حتى منتصف الألف الرابع قبل الميلاد، وغادروها نهائياً كما يرى سمث نحو 3200 ق م. (Smith, p 325) ويلاحظ أن هذا التاريخ يتزامن مع تطور مجتمعات النيل وتطور نظمها السياسية بقيام مملكة تاستي في السودان وممالك ما قبل عصر الأسر في مصر.

نشأة الثقافات السودانية المبكرة :

نشأت الثقافات السودانية المبكرة وتطورت في مجال جغرافي واسع ومتنوع البيئات امتد على طول النيل من أسوان شمالاً حتى النيل الأبيض جنوباً. ووفرت المساحات الواسعة شرق وغرب النيل امتدادات طبيعية للثقافات المبكرة على مناطق توفرت فيها سبل كسب العيش مثل وادي العلاقي والقاش ونهر عطبرة في شرق النيل، واحات الصحراء الغربية وبحيراتها وآبارها حتى منطقة الجلف الكبير شمال جبل عوينات على الحدود المصرية الليبية.

هذه المناطق مثل نباتا بلابا وآبار صحارى وكسيبا والجلف الكبير الواقعة الآن دخل الحدود المصرية الحالية كانت ضمن نطاق الثقافات السودانية المبكرة. ويوضح الباحثون أن الثقافات السودانية المبكرة في مناطق شرق وغرب النيل وثقافة منطقة النيل بين الشلال الأول والسادس كانت تمثل مناطق ثقافات مشتركة. (Williams, 2006, p 180; Gatto, 2009, p 21 – 22) وهكذا وفر المجال الحيوي الواسع والمتعدد البيئات للثقافات السودانية المبكرة بعداً طبعياً للمزيد من الاستيطان ونمو عدد السكان. وتواصل مؤسسو تلك الثقافات في المنطقة الواقعة بين البحر الأحمر شرقاً والحدود السودانية الليبية التشادية غرباً وبين منطقة أسوان شمالاً والنيل الأبيض جنوباً. وأصبحت الثقافات السودانية المبكرة جزءاً من مجتمعات الرعي pastoral complex الكبرى شمال شرق افريقيا خلال فترة العصر الحجري الحديث المتمثلة اليوم في القبائل النيلية مثل قبيلة الدينكا. (Smith, p 330) وقد ساعد هذا الوضع على تطور ثقافات مجتمعات الجمع والصيد ومجتمعات مربي الماشية. ففي الألف السادس قبل الميلاد تغيرت أنماط الاستيطان في منطقة دنقلة وتطورت في الألف الخامس قبل الميلاد قبل ظهور الطبقات الاجتماعية في المقابر. وازداد ظهور وتطور الطبقات الاجتماعية سرعة في الألفين الخامس والرابع قبل الميلاد. (Gatto, 2009, p 117 – 124; Ross, p 61 – 62; Sadig, 2010 p 117)

فالعصر الحجري الحديث في السودان - كما يرى الباحثون - أصبح معروفاً بأنه كان مجتمعاً أكثر تعقيداً مما كان يعتقد في ثمانينات القرن الماضي (Williams, 2006, p188; Gatto, 2009, p 24)

فعلى سبيل المثال تم تدجين البقر في منطقة كرمة في الألف السابع قبل الميلاد، ودخل الضأن والاعز في الألف السادس قبل الميلاد. وتم تدجين الحبوب في كدروكا في الألف الخامس قبل الميلاد. وشهد وادي الخوي شمال دنقلة نمط اقتصاد العيش المختلط وفي نهاية الألف السادس وبداية الألف الخامس قبل الميلاد ازداد عدد المستوطنات في منطقة دنقلة، ربما كان بعضها موسمي ارتبط بممارسة الرعي. (Sadiq, p 137; Gatto, 2009, p 22)

نشأة الثقافات المصرية المبكرة :

اختلفت نشأة وتطور الثقافات المبكرة في مصر عن نشأتها وتطورها في السودان اختلافاً كبيراً فيما يتعلق بالمجال الحيوي لكلا المنطقتين. فقد شهد مجرى النيل في شمال مصر - كما ذكرنا أعلاه - تغيرات كبيرة عبر العصور. لم تهيئ البيئة المساعدة لحياة الانسان وتطور الثقافات

المبكرة على تلك المناطق. وأوضح محمد عوض محمد (ص 159) أن النيل في شكله الحالي في مصر يبدأ نحو 12 ألف سنة مضت. وأدى هذا الوضع إلى تركيز الحياة البشرية المبكرة وقيام وتطور الثقافات في المنطقة الجوبية للنيل في مصر. وقد ارتبط قيام عصر الفراعنة بتلك الثقافات مثل ثقافات تاسيان ونقادة.

كما ارتبط تطور الثقافات المبكرة في مصر ارتباطاً كبيراً بالتغيرات المناخية التي حدثت في المناطق المجاورة للنيل وبخاصة في مناطق غرب النيل في الألف الخامس قبل الميلاد. فقد تراجع نطاق الأمطار الصيفية جنوباً حتي منطقة الخرطوم الحالية، وانخفضت نسبة هطول الأمطار في المناطق الواقعة غرب وشرق النيل وفي نفس الوقت امتدت أمطار البحر المتوسط جنوباً حتى منطقة الجلف الكبير شمال جبل عوينات. (Smith, p 330; Gatto, 2009, p 24)

أدى هذا التغير في الألف الخامس قبل الميلاد - الذي شهد تطور ثقافة نقادة التي نشأ عنها عصر الأسر المصرية - إلى تحركات سكانية واسعة وتحولات في سبل انتاج الطعام. فقد أدى تراجع الفاصل المداري جنوباً والذي كا يمتد شمالاً إلى منطقة أسوان إلى قلة الأمطار في منطقة شمال السودان والمناطق المجاورة للنيل مما أدى ببعض السكان إلى ممارسة الرعي، كما إلى تحرك بعضهم شمالاً إلى المناطق التي وصل إليها امتداد سقوط أمطار البحر المتوسط، وفي نفس الوقت حدثت هجرات كبرى ملحوظة من الصحراء نحو النيل. (Williams 2006 p 185; Gatto, 2009, p24) ويرى الباحثون أنه اتضح بعد عمليات مسح اقليمي في مدينة نخن (جنوب الأقصر) أن الاستيطان التدريجي على النيل حدث من الصحراء خلال الالف الرابع قبل الميلاد. فقد لوحظ وجود كثير من المظاهر المرتبطة برعي الماشية والتي جاءت من الصحراء في الدير المصري وفي الايقونات مثل خصوبة البقر والمعبود هاتور. (Smith, P 330)

كما يرى الباحثون أن الملكية والدين المصريين مرتبطان ارتباطاً قوياً بمجتمعات الرعي cattle complex في شمال شرق افريقيا المتمثلة اليوم في القبائل النيلية مثل قبيلة الدينكا. (Smith, P 330) وأن تواصل ثقافات مصر العليا النيلية وثقافات مناطق الصحراء وثقافة منطقة النوبة في شمال السودان والتغير المناخي خلال الجفاف التدريجي للصحراء أدى كل ذلك إلى تكوين الدولة المصرية كحضارة افريقية. ويرى سمث أن التغير المناخي ربما أتى بموجات من سكان الصحراء المتطورون إلى النيل، وأعطت إحدى تلك الموجات ضربة البداية للحضارة المصرية (Smith, P 330, 335)

ثالثاً: النشأة المشتركة لثقافات وادي النيل المبكرة:

كان الوضع الثقافي المبكر في السودان ومصر متجانساً يتكون من مراكز وقرى متصلة ببعضها البعض، وكان نمط الاستيطان واستراتيجية الغذاء والثقافة المادية متشابه وبخاصة في الفخار والدين والممارسات الجنائزية. وأدى التبادل التجاري المبكر بين تلك الثقافات في السودان ومصر إلى معرفة بعضهما البعض معرفة جيدة. ففي الألف الخامس قبل الميلاد لوحظ الشبه الكبير بين العصر الحجري الحديث في السودان والعصر الحجري الحديث في مصر، وترى جتو أن هذا الشبه في

العادات الجنائزية يوضح الأثر الأفريقي على الحضارة المصرية. (Gatto, and F. Teratterra, P 331; Gatto, 2009, p 22; William, 2011, p 84) وفخار منطقة النوبة في شمال السودان مطابق لفخار ثقافة نقادة1 (4000 - 3500 ق م) وفخار مناطق جنوب وغرب كرمة تطور في الألف الخامس ق م في المنطقة الممتدة من مصر العليا شمالاً وحتى منطقة الخرطوم جنوباً. ويوجد تشابه كبير بين فخار ثقافة أبكان وفخار ثقافة البداري في مصر العليا 5000 - 4500 ق م. (Gatto, and F. Teratterra, P 331; Smith, p 331; Ross, p 25) ويوجد رسمان صخريان في منطقة الشلال الثالث يمثل الرسم الأول صيد لرجل يحمل حراباً وفرس النهر شبيه برسوم ثقافة نقادة1 في مصر. والنقش الآخر يمثل فرس النهر وفيل في منطقة الشلال الثالث هي نفسها رسوم ما قبل الاسر المتأخرة وبداية عصر الأسر. كما يوجد عدد من الرسوم الصخرية شمال الشلال الثاني بما في ذلك القوارب العادية والمقدسة. وهذا أيضاً يوجد في رسوم ثقافة نقادة، ورغم الشبه بينها إلا أن هنالك بعض الاختلافات. (Williams, 2006 p 181 - 182, 186; Williams, 2011 p 84; Smith, p 331) ويرى الباحثون أن أيقونات منطقة الشلال الثالث شبيهة بأيقونات ثقافة نقادة، وأن أيقونات ما قبل قسطل (A-Group) تطابق أيقونات عصر الفراعنة. ويلاحظ أن رموز الملكية الفرعونية نادرة في مصر وأحدث من مثيلاتها في قسطل في السودان مما يوضح أن الملكية وجدت في السزدان ومصر قبل بداية عصر الفراعنة. (Smith, p 332: Gatto and Teratterra, p 334) وقد درست جتو في موضوعها القيم «Ceramic Traditions and Cultural Territories: The Nubian Group in Prehistory» الثقافات المبكرة للمنطقة الواقعة على طول النيل بين جنوب مصر شمالاً والخرطوم جنوباً وبين منطقة كسلا شرقاً والجلف الكبير على الحدود الليبية المصرية غرباً في الألفين الخامس والرابع قبل الميلاد. وأطلقت جتو على كل ثقافات هذه المناطق «المجموعة النوبية» (Gatto, 2002, p8 - 19) وبغض النظر عن مدى صدق هذا التعبير اثنيّاً أو جغرافياً في مفهومنا الحالي فإن جتو وجدت الثقافات المبكرة في كل تلك المنطقة في الألفين الخامس والرابع قبل الميلاد ثقافات متشابهة ذات سمات مشتركة تمثل مجموعة ثقافية أطلقت عليها «المجموعة النوبية» وقد اعتمدت جتو في دراستها على الفخار الذي جمعه الباحثون في كل هذه المنطقة واستخدمت نظرية «Theory of Style» للكشف عن أنواع الثقافات بدلاً من الحدود المكانية. وقد توصلت في دراستها إلى تمييز 49 وحدة أو مجموعة ثقافية في كل منطقة الدراسة خلال ألفي سنة (5000 - 3000 ق م) وتمكنت من رصد الشبه والسمات المشتركة بين الثقافات المبكرة وتناولتها تحت مسمى «المجموعة النوبية» وقد ضمت «المجموعة النوبية» في الألف الخامس قبل الميلاد على النيل المناطق على طول النيل جنوباً حتى الخرطوم، وكان الشلال الثاني قلب المجموعة حيث تأسست مجموعة ثقافة أبكان. وفي شرق النيل ضمت «المجموعة النوبية» مناطق كسلا ونهر عطبرة وصحراء العتاي ووادي الحمامات. وفي غرب النيل ضمت «المجموعة النوبية» مناطق الجلف الكبير والواحة الخارجة ومنطقة لقية ونبتا بلایا ووادي هور. (Gatto, 2009, fig.1, 2 p 9, 10, p 17) وضمت «المجموعة النوبية» في الألف الرابع قبل الميلاد المركز على النيل بين جنوب مصر والخرطوم، وتطورت في هذه المرحلة في النوبة

السفلى ثقافة المجموعة أ (ثقافة ما قبل قسطل) وضمت «المجموعة النوبة» غرب النيل في هذه الألفية الرابعة الجلف الكبير ولقية والمجموعة أ ووادي هور، وفي شرق النيل ضمت المجموعة النوبية منطقة صحراء مصر الجنوبية ومنطقة العتباي والبطانة والمجموعة الثقافية أ (Gatto, 2009, p 17, 4 p 12, fig.3). وهكذا يتضح أن الثقافات المبكرة في السودان ومصر قد نشأت نشأة مشتركة ومتشابهة قبل بداية عصر الأسر المصرية.

رابعاً: أثر السودان على الحضارة المصرية:

تمتع المجال الحيوي الذي نشأت عليه الثقافات السودانية المبكرة بمميزات لم تتوفر في المجال الحيوي للثقافات المصرية المبكرة. فقد رأينا - أعلاه - أن المجال الحيوي الذي قامت عليه الثقافات المصرية المبكرة محدود النيل في مساحة صغيرة جنوب مصر مع قلة مصادر الحياة في المناطق الواقعة شرق وغرب النيل بعكس ما هو الحال عليه في السودان. فالمجال الحيوي للثقافات السودانية المبكرة ممتداً على مساحات كبيرة على النيل بين أسوان شمالاً والنيل الأبيض جنوباً. كما تميز المجال الحيوي الواقع إلى الغرب والشرق من النيل في السودان بوفرة الموارد وتنوع سبل كسب العيش مما ساعد على ازدياد عدد السكان وتطور نظمهم الاقتصادية والاجتماعية المبكرة أكثر مما عليه الحال في مصر. ولذلك أتت البدايات المبكرة للثقافات في السودان أسبق بكثير من بداياتها في مصر (Ross p 56) وأثر العصر الحجري الحديث السوداني في المراحل المبكرة تأثيراً شديداً على ثقافة مصر العليا (William, 2011 p 82) (Williams, 2006, p 188); كما كان لبعض ثقافات منطقة النيل المبكرة في شمال السودان أثر واضح على تطور ثقافة مصر العليا (Ross p 81) ويرى آركل أن حضارة ما قبل الأسر تأسست على العصر الحجري الحديث السوداني (Arkell, p 37) وقد أدى تغير المناخ في الألف الخامس قبل الميلاد إلى تحرك سكان شمال السودان شمالاً ونقلوا ثقافتهم technocomplex المرننة المتطورة إلى مصر الوسطى حيث انتشرت ممارساتهم الثقافية وعقائدهم وثقافتهم المادية قبل مدة طويلة من توحيد مصر (Ross p, 59) فمن بين السمات الواضحة لثقافة نقادة المادية الوجود الواضح لعناصر ثقافة منطقة شمال السودان (Gatto, 2014, p 117) وقد تناول الباحثون بعض جوانب أثر الثقافة المادية السودانية على الحضارة المصرية مثل أثر فخار مناطق شمال السودان على ثقافة تاسيان ونقادة (Ross. P 61) وانحدار فخار نقادة 1 من فخار ثقافة الخرطوم المبكرة وإرجاع بعض أدوات ثقافة تل العمارنة إلى ثقافة الخرطوم (Arkell, p 33, 35) وتقول الباحثة ماريا جتو أن افتراض تواصل السودانيين المبكر مع المصريين أدى بطريقة ما إلى تعزيز أو تقدم الحضارة السودانية افتراض غير صحيح، وفي الحقيقة فإن الفخار السوداني أرقى في تصميمه من الفخار المصري (Gatto. 2009, p22) وتوضح روس أنه لا يمكن التقليل من أهمية الاكتشافات الجديدة في تحليل الأثر السوداني في مرحلة ما قبل عصر الأسر على تطور مصر الفرعونية (Ross, 2013 p 69) والسمة الحاسمة التي توضح الأثر السوداني على مصر في عصر ما قبل الأسر كما ترى روس هو السرخ Serekh صورة واجهة القصر التي تظهر في

المواكب والرسوم الملكية فهي اختراع سوداني، والممارسات الملكية المصرية هي في حقيقتها سودانية الأصل (Ross, 2013 p 69, 71) والسرحدات السودانية تختلف في شكلها عن المصرية. (William, 2011, p 90) وأن رموز الملكية الفرعونية نادرة في مصر وأحدث من مثيلاتها في قسطل في السودان. (Gatto and F. Teraterra, p 334)

خامساً: الانفصال الثقافي:

لم يكن هنالك تميز وانفصال بين سكان وادي النيل في السودان وجنوب مصر قبل قيام ثقافة نقادة في الألف الرابع قبل الميلاد. وبدأت بوادر التميز بين المصري والسوداني في عصر ثقافة نقادة حيث أخذت ثقافات جنوب مصر مساراً جديداً نحو الشمال وارتبطت مصر بحضارة البحر المتوسط. وقد أدى التحول الاجتماعي والسياسي الذي تمخض عنه تكوين الدولة المصرية في الألف الرابع قبل الميلاد إلى بروز مفاهيم جديدة مثل مفهوم الدولة القومية ذات الحدود المعينة والهوية والتميز عن الآخر (Gatto, 2009, p 26; Gatto, 2014, p 93, 114)

يرى ولسون أن حياة المصريين على شريط النيل الضيق ساعدت على الانفصال والشعور بالعزلة عن الآخر ألا أن هذا الشعور الانعزالي لم يكن عرقياً أو اكسوتوفياً لا يقبل الجدل بل كان ذلك مسألة جغرافية وعرفية، فكان «الناس» هم الذين يسكنون مصر دون أي تفريق في العرق أو اللغة. فإذا اقام غريب في مصر وتعلم اللغة المصرية وتزيا بالزي المصري قبل كواحد من «الناس» بل قد يبلغ احد هؤلاء الغرباء أعلى المراتب حتى مرتبة الملك أو المعبود الذي يملك الشعب بأسره (ولسون ص 46 - 47) ولم يكن التميز واضحاً بين السوداني والمصري حتي نحو نهاية الألف الرابع قبل الميلاد كما يتضح من نقش نجع الحمدلاب (3200 - 3100 ق م) شمال أسوان الذي يظهر فيه رسم لشخص من منطقة النوبة ذو مكانة عالية وليس عدو يشارك في طقوس ملكية مما بوجي بحسن العلاقة بين الجانبين. (Gatto, 2014, p 112. 114) ومع قيام الدولة المركزية في مصر وبداية عصر الأسر في نهاية الألف الرابع بدأ التميز واضحاً بين السكان وأصبح الشلال الأول الحد الفاصل بين من هو مصري ومن هو غير مصري، وبرزت الثقافة المصرية والشعور بالذاتية المختلفة عن الآخر. وبرزت بظهور الشخصية المصرية المتميزة وقيام الدولة المصرية الموحدة مسألة حدود الدولة. ويبدو أن الحدود لم ترتبط فقط بامتداد العنصر المصري جنوباً، بل ارتبطت بالمصالح التجارية والأمنية منذ البداية والذي تمثل في محاولات التوسع جنوباً والصراع الذي دار بين السودانيين والمصريين منذ بداية عصر الأسر. وترى روس أنه يجب نسيان الحدود الحالية بين مصر والسودان عند دراسة الك الحقبة المبكرة، وهذه الحدود لا علاقة لها بدراسة تاريخ افريقيا القديم. فهذه المنطقة الحدودية الحالية بين مصر والسودان شهدت لآلاف السنين التواصل والتبادل الحر منذ بداية عصر الهولوسين. (Ross, p 71) وأخيراً فإنني أرى أن السؤال الذي يتكرر كثيراً في الوسائط الاجتماعية بين المهتمين والمتابعين لتاريخ السودان القديم وهو: أيهما أقدم الحضارة

السودانية أم الحضارة المصرية يمكن أن يعدل إلى: أي الثقافات المبكرة السودانية والمصرية في مرحلة ما قبل الأسر كانت أكثر تطوراً؟ والاجابة الواضحة من خلال ما جرى عرضه في هذا الموضوع أن الثقافات السودانية المبكرة كانت أكثر تطوراً من نظيراتها المصرية، وأن الثقافات السودانية المبكرة - قبل انفصال ثقافات وادي النيل - قد أثرت بصورة كثيراً وبصورة واضحة على الحضارة المصرية في عصر ما قبل الأسر وبداية عصر الأسر.

الهوامش:

- (1) أحمد الياس حسين، «فترة الثقافات المبكرة من تاريخ السودان القديم - موضوعات أرقام 1 - 5» صحيفة سودانايل الالكترونية، منبر الرأي: 15 يونيو 2021 و 1 سبتمبر 2021 و 23 سبتمبر 2021 و 28 ديسمبر 2021 و 27 مارس 2022.
- (2) أحمد عوض محمد، (2008) نهر النيل، القاهرة: مكتبة الأسرة، سلسلة القراءة للجميع
- (3) ويلسون، جون أ. «مصر طبيعة الكون واعتبارات جغرافية» في هنري فرانكفورت وآخرون، ما قبل الفلسفة: الانسان قبل مغامرته الفكرية الأولى، ترجمة جبرة إبراهيم بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر. ب. ت.
- (4) Arkell, A. J. (1955) A History of the Sudan: from the Earliest Times to 1821, London: University of London.
- (5) El Sharifie, Abdalgadir A. I (2011) "Palaeographic Evolution and Palaeoenvironmental reconstruction of the Sudd Area during Early Mid-Holocene, Sudan" Journal of African Earth Science, April, Vol. 60 (1) 13 - 18.
- (6) Gatto, Maria Carmela, (2002) "Ceramic Traditions and Cultural Territories: the Nubian Group in Prehistory" Sudan and Nubia, Bulletin no. 6, pp 8 - 19.
- (7) Gatto, Maria Carmela, (2009) "The Nubian Pastoral Culture as Link between Egypt and Africa: A view from the Archaeological Record" in Exell, Kurin, Egypt in its African Context. Proceeding of the Conference Held at the Manchester Museum, University of Manchester 2 - 4 October, 21 -29.
- (8) Gatto, Maria Carmela, (2014) "Cultural Entanglement at the Down of the Egyptian History: A View from the Nile First Cataract Region" ORIGINI, XXXIV, 93 - 123.
- (9) Gatto, Maria Carmela and F. Teratterra, (1996) "contact Between the Nubian A-Group and Prehistoric Egypt" International Contacts In the Later Prehistory of North Eastern Africa, Posnan. pp 331 - 334.
- (10) Mallinson, Michael, et al (2015) "Road Archaeology in the Muqaddam: SARS Survey from Omdurman-Gabolab, Environmental and Cultural Change in Bayuda" First International Conference on the Archaeology of the Bayuda Desert, Munster, Germany.
- (11) Manning, Katie and Timpson, Adrine, Demographic response to Holocene Climate Chang in the Sahara" Quaternary Science Review, 101, (2014) 28 - 35.
- (12) Nicoll, Cathleen (2004) "Recent environmental Change and Prehistoric Human Activities in Egypt and Northern Sudan" Quaternary Science Review, 23, 561- 580.

- (13) Ross. Larry. (2013) Nubia and Egypt 10000 BC to 400 AD, the Edwin Mellen, Lewiston, Queenston, Lampeter.
- (14) Sadig, Azhari Mustafa (2101) "Neolithic Settlement Parents and Cultural Sequence of Nubia (North Sudan)" SAHARA, 21, 117 – 140.
- (15) Smith, Stuart Tyson, (2018) "Gift of the Nile, the Origins of Egyptian Civilization and Interactions Within Northeast Africa" in Bacs, Across the Mediterranean- Along the Nile, Budapest: Museum of Fine Arts. pp 325345-
- (16) Williams, Bruce (2006) "A group Society in the Context of North-eastern Africa" Archaeology of Early Northeastern Africa, Studies in North African Archaeology, Poznan: Archaeological Museum, 177194-.
- (17) Williams, Bruce, (2011) "Relations Between Egypt and Nubia in the Naqada period" in Emily Teeter (ed.) Before the Pyramids, the Origin of Egyptian Civilization, Oriental Institute Museum Publication, the Oriental Institute of the University of Chicago, 8392-.
- (18) Williams, Martin A. J. et al, (2006) "Abrupt return of the Summer Monsoon 15. 000 Years ago: New Supporting Evidence from the Lower White Nile Valley and Lake Albert" Quaternary Science Review 25, 2651 – 2665.